

أهمية خُلُق العدل والإنصاف



كان النبي (ص) عندما ينظر إلى المرأة يقول: "اللّهمّ" كما حسّنتَ خَلْقِي فحسّين خُلُقِي". أغلبنا عندما يقف أمام المرأة يركّز على الشكل وعلى الجمال وعلى المظهر، ولكن النبي (ص) يعلمنا أن نركّز في البحث عن جمال الباطن أكثر من الظاهر، وجمال الباطن هو الأخلاق. هذه طريقة نبوية جميلة لتنظر في مرآة الداخل، فترى وتتذوق جمال الحياة عند صلاح الأخلاق.

تعالوا عندما نقف أمام المرأة ننظر كما كان النبي (ص) ينظر.. ننظر إلى مرآة الداخل. هل ترى أخلاقك الحسنة؟ وهل ترى أخلاقك السيئة؟ أيهما يغلب على الآخر؟ وأكثر من دعاء النبي (ص): "اللّهمّ" كما حسّنتَ خَلْقِي فحسّين خُلُقِي".

وعندما تعامل الناس، انظر إلى مرآة أخلاقهم قبل وجوههم، عندما تريد الزواج انظر في مرآة أخلاق الفتاة قبل النظر إلى خلقها. وإِ عزّ وجلّ يعلمنا أن ننظر إلى الأخلاق أو ولاً، قال رسول الله (ص): "إنّ لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

معنا في هذا المقال خُلُق من الأخلاق المهمة، فهو خُلُق قامت عليه السماوات والأرض.. تخيل السماوات والأرض استقامت بهذا الخلق، ولا يمكن أن تقوم نهضة لأي أُمَّة من الأُمم من دون هذا الخلق. بل إنّ الله تعالى يبقي الدولة الكافرة لو معها هذا الخلق، وبزيل الدولة المسلمة لو فقدت هذا الخلق، وهو خُلُق العدل والإنصاف.

لا نهضة ولا بقاء إلا بهذا الخلق، وبالتالي، قمة الحكمة للأُمَّة وللدولة وللمجتمع وللأفراد المحافظة على خُلُق العدل. ولكن، إذا انتشر الظلم وأصبح واضحاً معلناً بين المسلمين، لن ينهضوا أبداً. قال تعالى: (وَإِذَا قُلُوبُكُمْ فَعَادِلُوا) (الأنعام/ 152). اعدل إذا تكلمت، بل إذا حكمت بين الناس. قال: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمٌّ بِمَنِ يَعِظُكُمْ بِهِ) (النساء/ 58)، هذا الذي يعظكم به هو العدل والإنصاف.

هو أمر من اﻻ عزّ وجلّ: (إِنَّ اللّٰهَ يَأْتُمُّرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل/ 90). انظر إلى الآيات، وكأنّها كلها تقول: عليكم بالعدل والإنصاف.

عن الحسن البصري قال: "إنّ اﻻ عزّ وجلّ جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة. فواﻻ ما ترك العدل والإحسان من طاعة اﻻ شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية اﻻ شيئاً إلا جمعه".

فالعدل هو رأس الأخلاق والقيم، وهو صفة ربانية جعلها اﻻ تعالى اسماً من أسمائه، واختص بها ذاته لعظمتها وأهميتها في كلّ زمان ومكان، وهو إحدى صفات المؤمنين، ومبدأ أساسي من مبادئ الشريعة الإسلامية، ليس فيه استثناء ولا تهاون.

أمر رباني لرسولنا ولأُمته من بعده، وبه بعث اﻻ عزّ وجلّ الرسل مبشرين ومنذرين. به يكتمل صلاح العباد والبلاد، ويشمل حقوق اﻻ وحقوق العباد.

أولى الإسلام أهمية كبيرة للعدل وجعله قضية مركزية، فلا يوجد ركن في الإسلام إلا والعدل فيه مطلوب، سواء ارتبط بالفرد أم الجماعة أم الأُمّة، أم ارتبط بالعقيدة أم المعاملة أم العبادة، بل إنّ الإسلام جعله أعظم المقاصد التي يقصد إليها الشرع، وصلب الدين. فقضية العدل ليست اختيارية أو من فضائل الأعمال، إنما هي أمر إلزامي لا تقوم الشريعة إلا به، ولا يستقيم لمؤمن أن يحكم بغيره، وهو من الأسس التي عليها عمار الكون، وصلاح العباد، حث عليه الإسلام وجعله أساساً للحكم بين الناس، ومعناه لغة الإنصاف.

ومن العجيب هذا الخُلق أنّ اﻻ تعالى عندما أمر بالعدل بدأ بالأعداء. تخيل.. يأمر اﻻ بالعدل والإنصاف مع العدو وليس مع الصديق. فكيف عدلك مع أولادك ومع زوجتك وجيرانك وأقاربك، حتى لو اختلفوا معك في الرأي؟

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَالِي أَلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة/ 8). وقيل في تفسير الآية: "إنّ اﻻ جلّ ثناؤه يعني بذلك: يا أيها الذين آمنوا ياﻻ وبرسوله ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام اﻻ شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم، فنتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا يحملنكم عداوة قوم على ألا تعدلوا في حكمكم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة".

ولكن، أين يكون العدل؟ ومع من أعدل حتى أصل إلى التحلي بهذا الخلق العظيم؟

توجد ثلاثة مواطن إذا عدل فيها الإنسان يصل إلى قمة الإنصاف والعدل، وهي:

1- أن تعدل مع عدوك.

2- أن تعدل مع من هو أضعف منك، امرأة كانت أو إنساناً ضعيفاً.

3- أن تعدل مع منافسك وقرينك.

لو تحلى الإنسان بالعدل والإنصاف في هذه المواطن الثلاثة، فهو سيكون عادلاً في باقي الأمور، لأنّها

العدل ليس معناه تقسيم الأموال بالعدل فقط، ولكن العدل أوسع من ذلك. وما نركز عليه اليوم هو أن تنصف عدوك وتعديل معه، حتى في الكلام.

هل تستطيع أن تنصف عدوك وتذكر ما فيه من أشياء جيّدة؟

استمع إلى ربنا جلّ وعلا في كتابه كيف يعلمنا هذا الأدب. يقول الله جلّ وعلا عن أهل الكتاب وهو يلعنهم ويذمهم: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَلْيَهُمُ الذِّلَّةُ أَلْيَنَ مَا تُلْقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ...) (آل عمران/ 112).

ثمّ قال: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) (آل عمران/ 112)، انظر إلى كلّ هذه الجرائم. ولكن الله أنصفهم، انظر الإنصاف بعد كل ذلك الذنب، قال الله: (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْزَلَهُمْ إِلَّا الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَهُمُ الَّذِينَ يُؤَدُّوهُ إِيَّاهُ لَا يُؤَدُّوهُ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِمْ قَائِمًا...) (آل عمران/ 75). وقال تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِيَّاهُ وَإِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدٍ يَنَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِيَّاهُ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِمْ قَائِمًا...) (آل عمران/ 75). وقال تعالى: (وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَّئِينَ أُمِّمَّةٌ يَهْذُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْتَدِلُونَ) (الأعراف/ 159). كلّ هذه الآيات تدعو إلى الإنصاف وعدم التعميم، لأنّ التعميم عمى يجعلك لا تعطي كلّ صاحب حقّ حقه، ويجعلك تبتعد عن العدل. فاعدلوا هو أقرب للتقوى.

بعد هذا العرض السريع لهذا الخلق العظيم، يأتي السؤال: "كيف أستطيع تطبيق هذا الخلق في حياتي حتى يصبح صفة من صفاتي؟"

نستطيع ذلك بخطوات عدة منها:

1- اختر آية أو حديثاً أو قولاً مأثوراً من داخل المقال، أو متعلقاً بخلق العدل والإنصاف، ويكون أثر فيك، واجعله شعارك هذا الأسبوع.

2- جرب بنفسك. ابحث بين أصدقائك أو معارفك أو أسرتك، وكن عادلاً معهم، كن عادلاً مع أولادك في القسمة، وكن عادلاً ومنصفاً مع زوجتك.

3- شجع غيرك على خلق العدل والإنصاف، لتضمن انتشار هذا الخلق بين الناس، وليعم الخير على الجميع. وعندما تشجع غيرك يزداد بداخلك الدافع على التطبيق.

4- لا تعمم. إياك والتعميم. فلا يوجد شيء يجعل الإنسان يبتعد عن العدل والإنصاف غير التعميم، لأنّ التعميم يجعلك تعمى عن رؤية الناس بحسنتهم وسيئتهم، ولا ترى غير السيئات.

5- الدعاء. ادعُ ربنا بصدق وإخلاص أن يجعلك عادلاً، ويعينك على الإنصاف مع الناس ومع أهلك ومع نفسك.

وأخيراً، أكثر من دعاء النبي (ص): "وأهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت." ▶

